وعقب هذا الملام بقوله (ولقد عفا عنكم) تسكينا لخواطرهم وفي ذلك تلطف معهم على عادة القرآن في تقريع المؤمنين وأعظم من ذلك تقديم العفو على الملام في ملام الرسول عليه السلام في قوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) . فتلك رتبة أشرف من رتبة تعقيب الملام بذكر العفو وفيه أيضا دلالة على صدق إيمانهم إذ عجل لهم الإعلام بالعفو لكيلا تطير نفوسهم رهبة وخوفا من غضب الله تعالى .

وفي تذييله بقوله (والله ذو فضل على المؤمنين) تأكيد ما اقتضاه قوله (ولقد عفا عنكم) والظاهر أنه عفو لأجل التأويل . فلا يحتاج إلى التوبة ويجوز أن يكون عفوا بعدما ظهر منهم من الندم والتوبة ولأجل هذا الاحتمال لم تكن الآية صالحة للاستدلال على الخوارج والمعتزلة القائلين بأن المعصية تسلب الإيمان .

(إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون [153]) (إذ تصعدون) متعلق بقوله (صرفكم عنهم) أي دفعكم عن المشركين حين أنتم مصعدون .

والإصعاد : الذهاب في الأرض لأن الأرض تسمى صعيدا قال جعفر بن علبة : .

" هواي مع الركب اليمانين مصعد والإصعاد أيضا السير في الوادي قال قتادة والربيع : أصعدوا يوم أحد في الوادي . والمعنى : تفرون مصعدين كأنه قيل : تذهبون في الأرض أي فرارا (إذ) ظرف للزمان الذي عقب صرف الله إياهم وكان من آثاره .

(ولا تلوون على أحد) أي في هذه الحالة . واللي مجاز بمعنى الرحمة والرفق مثل العطف في حقيقته ومجازه فالمعنى ولا يلوي أحد عن أحد فأوجز بالحذف والمراد على أحد منكم يعني : فررتم لا يرحم أحد أحدا ولا يرفق به وهذا تمثيل للجد في الهروب حتى إن الواحد ليدوس الآخر لو تعرض في طريقه .

وجملة (والرسول يدعوكم في أخراكم) حال والأخرى آخر الجيش أي من ورائكم . ودعاء الرسول دعاؤه إياهم للثبات والرجوع عن الهزيمة وهذا هو دعاء الرسول الناس بقوله " إلي عباد الله من يكر فله الجنة " .

وقوله (فأثابكم غما) إن كان ضمير (فأثابكم) ضمير اسم الجلالة وهو الأظهر والموافق لقوله بعده (ثم أنزل عليكم من بعد الغم) فهو عطف على (صرفكم) أي ترتب على الصرف إثابتكم . وأصل الإثابة إعطاء الثواب وهو شيء يكون جزاء على عطاء أو فعل . والغم ليس بخير فيكون أثابكم ما استعارة تهكمية كقول عمرو بن كلثوم : .

قريناكم فعجلنا قراكم ... قبيل الصبح مرداة طحونا أي جازاكم ا على ذلك الإصعاد المقارن للصرف أن أثابكم غما أي قلقا لكم في نفوسكم والمراد أن عاقبكم بغم كقوله (فبشرهم بعذاب أليم) وفي هذا الوجه بعد : لأن المقام ملام لا توبيخ ومقام معذرة لا تنديم وإما مشاكلة تقديرية لأنهم لما خرجوا للحرب خرجوا طالبين الثواب فسلكوا مسالك باءوا معها بعقاب فيكون كقول الفرزدق : .

أخاف زيادا أن يكون عطاؤه ... أداهم سودا أو محدرجة سمرا وقول الآخر : قلت : اطبخوا لي جبة وقميصا ونكتة هذا المشاكلة أن يتوصل بها إلى الكلام على ما نشأ عن هذا الغم من عبرة ومن عناية ا تعالى إليهم بعده .

والباء في قوله (بغم) للمصاحبة أي غما مع غم وهو جملة الغموم التي دخلت عليهم من خيبة الأمل في النصر بعد ظهور بوارقه ومن الانهزام ومن قتل من قتل وجرح من جرح ويجوز كون الباء للعوض أي : جازاكم ا غما في نفوسكم عوضا عن الغم الذي نسبتم فيه للرسول وإن كان الضمير في قوله (فأثابكم) عائدا إلى الرسول في قوله (والرسول يدعوكم) وفيه بعد فالإثابة مجاز في مقابلة فعل الجميل بمثله أي جازاكم بغم . والباء في قوله (بغم) باء العوض . والغم الأول غم نفس الرسول والغم الثاني غم المسلمين والمعنى أن الرسول اغتم وحزن لما أصابكم كما اغتممتم لما شاع من قتله فكان غمه لأجلكم جزاءا على غمكم لأجله .

A E